التفاعل بين الأدب والمجتمع
(أدبيات محمد العيد آل خليفة أنموذجا)

د/عيسى مدور

كلية الآداب واللغات – جامعة باتنة – الجزائر

الملخص:

تحاول هذه الدراسة أن تناقش إشكالية التفاعل بين الأدب والمجتمع قصد تحديد مفهومها، والوقوف على أهدافها، والكشف عن العلاقة التفاعلية بين الأدب والمجتمع، وذلك من خلال أدبيات محمد العيد آل خليفة التي تمثل نتاجا أدبيا يحقق استجابة القارئ أو المستمع له؛ إذ يُعد ذلك سببا رئيسا في الاهتمام بدراستها ومحاولة إصدار الحكم عليها، وبخاصة فيما له صلة بالظاهرة التفاعلية بين الأدب والمجتمع.

Résumé:

Cette étude tente de discuter de l'interaction problématique entre la littérature et la société afin de déterminer son concept, et montez sur les objectifs et la divulgation de la relation interactive entre la littérature et la société, à travers la littérature Mohammed Eid Al Khalifa, représentant le produit atteint moralement lecteur-réponse ou l'auditeur a une cause majeure de préoccupation pour étudier et tenter les condamner, car il est particulièrement en relation avec le phénomène d'interaction entre la littérature et la société.

إشكالية الموضوع

إن القول بتحقيق مطالب النصوص الأدبية يستدعي حَتْمًا إدراك أهمية ظاهرة الإبداع الأدبي لدى الدارسين والباحثين الاجتماعيين التي استأثرت بقدر هائل من اهتماماتهم وعنايتهم بما يتناسب وقيمتها في المجتمع.

وهنا يحق القول أن الإبداع الأدبي ينبثق عن ذات عاقلة تفيض بمشاعر صادقة إزاء الآخرين، وهذه صفة إجتماعية ملازمة حتما للأدب؛ علما بأن الأديب هو ابن بيئته يتأثر بها ويؤثر فيها، باعتبار أن نتاجه الإبداعي يحقق التفاعل بين الأدب والمجتمع بمَا يَبْنيه من علاقات جادة تفرضها الظروف الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي تحياها الأمة.

وتكمن التساؤلات المدرجة حول ظاهرة التفاعل بين الأدب والمجتمع في كم التساؤلات النصية التي تحمل الفعل ورد الفعل من قبل الكتاب والباحثين، وذلك ما نتتبعه من خلال موضوع الدرس.

تقديم:

إن الاهتمام بالدراسات الأدبية تعد السبب الرئيس في ترقية الحقول المعرفية لدى الإنسان، مما دفع بكثير من الناس إلى التسابق والتدافع لنيل قصب السبق والريادة في هذا المجال الذي يسهم بحق في بناء الحضارات الإنسانية.

وما الحياة الأدبية إلا جزء من الحياة الاجتماعية التي يحياها الناس، ولا غرابة في أنها أصابها من التأثر والتفاعل ما أصاب الحيوات الأخرى؛ لذا ينبغي أن نكشف عن مدى هذا التأثر، وعن طبيعة هذا التفاعل بين الأدب والمجتمع، وما أديا إليه من نتائج...

وقبل ذلك يبدوا أن من الحق علينا القول أن التسلح بالمناهج العلمية إزاء الدراسات الأدبية أمر طبعي، يسلكه الباحث قصد تحقيق قيم للذات الإنسانية لتصعيدها إلى مستواها

الفطري الأصيل الذي لا يتكشف آخر الأمر إلا عن النفع والخير، وهذا ما لا يدركه إلا من أحاط علما بحقيقة هذه المناهج التي تدر فوائد عظيمة إذا أحسن إستعمالها، وبخاصة فيما له صلة بالظاهرة الأدبية.

فميدان الأدب يحمل الكثير من الجدل، وبخاصة لدى الأمم والشعوب المغلوبة؛ إذ تراهم مولعين بتقليد الغالب حتى أصبح لديهم الاستشهاد بالقول المنسوب للغالب هو فصل الخطاب، بل الحجة المسكتة التي ينقطع بها جدل المختصين.

من هنا ندرك أهمية وقيمة الظاهرة الأدبية في حياة الناس، فإن لقيت عناية من أبنائها أصبحت وسيلة من وسائل البناء الحضاري، والتفاعل الإيجابي مع المجتمع، وإن تخلى عنها أبناؤها وشغفوا بآداب الآخر تحول الأمر إلى هدم لكيان الأمة، وانقطاع عن ذاتها، وروحها، وهذا ما يورث أزمة يصعب علاجها، لذلك ينبغي الالتفات إلى خطورة الوضع، والبحث عن إيجاد صيغ جديدة لعلاج قضايا الأمة، منها قضية الأدب الذي كان وما يزال مثار استلهام لكثير من شعوب الأرض الأمر الذي يدفعنا- كما قلنا آنفا- إلى إيجاد صيغ جديدة تعتمد العلمية، والموضوعية في الدراسات الأدبية التي تعد بحق من أولويات اهتمام كثير من أبناء الأمة الذين نصبوا أقلامهم للذود عنها، متسلحين بمصادر المعرفة الحديثة لتخليصها من الروح الانهزامية المبهورة بإنجازات الآخر، وإعطائها تصوراتهم من أجل المستقبل الواعد، ويتجلى ذلك بوضوح في الحقل الأدبي، وما صاحبه من تأثر، وتفاعل مع الحياة الاجتماعية؛ لذا يجب أن يكون التلاؤم التام، والتفاعل الجاد بين الأدب والمجتمع الذي نشأ فيه ليستمد منه ضوابطه ومعالمه المنطقية والفكرية، وهذا ما يصبوا إليه عقلاء الأمم لإيجاد أدب هادف يخدم المصلحة العامة التي تنعم به البشرية جمعاء.

وهذا الأدب الذي سنحاول الحديث عنه وتوضيح معالمه من خلال تفاعله مع المجتمع، يظهر في أكثر من نتاج أدبي، منه ما يتجلى بوضوح فيما نعتمده من أدبيات الشاعر (محمد العيد آل خليفة) لإعطاء صورة واضحة عن أهمية التفاعل بين الأدب والمجتمع، وقبل ذلك ليس من حقنا أنْ نَسْتَعْجل الحديث عن الإشكالية دون أن نشير إلى مفهوم الأدب، وأهميته، وعلاقته بالمجتمع.

1-مفهوم الأدب

إن كثيرا من الدارسين والباحثين الذين يكتبون في الموضوعات الأدبية، يوردون أكثر من مفهوم للأدب منها:

أن الأدب: « في إطاره الإبداعي أحد الفنون الجميلة الخمسة: كالرسم، والنحت، والرقص، والموسيقى، وهو مثلها جميعا صناعة فنية يعبر بها التعبير المؤثر الجميل، عن طوايا النفس البشرية في كل ما تضطرب به من أشتات الرؤى وخواطر الفكر والوجدان، ولا يختلف عنها في شيء، من حيث الغاية التأثيرية التي يسعى إليها كل من جميل ».[1]

وأنه: « مرآة تعكس لنا الحياة والطبيعة وما تثيرانه في النفس البشرية من خوالج وأفكار».[2]

وهو: « تعبير جمالي بالكلام عن معاناة صاحبه الذي يجسد أحاسيسه بلغة تتصف بصفات فنية إيحائية، في مفرداتها وتراكيبها ومضامينها المعنوية وأشكالها البنائية الإبداعية».[3]

وهو أيضا: « علم صناعي تعرف به أساليب الكلام البليغ في كل حال من أحواله».[4]

وأخيرا: « فهو الذي يجب أن نرجع إليه إذا أردنا أن نميز أو أن نفهم ميزات الأمة العقلية والنفسية وعيوبها ».[5]

فهذه المفاهيم **الأول** منها يحدد مفهوم الأدب بأنه في إطاره الإبداعي فن جميل كغيره من الفنون الجميلة الأخرى، ويشترك معها في الصناعة الفنية والتعبير الجميل المؤثر الذي يكشف عن خفايا النفس البشرية، وهو هنا يضع الذات والمتلقي معا في أولويات اهتمامه بما يحدثه من تأثير فيهما بعبارة جميلة مؤثرة، وهي غاية كل فن جميل.

والثاني يعطينا حقيقة الأدب بأنه لا ينحصر في ذات صاحبه ويبقى بمعزل عن واقعه المعيش، بل هو لوحة حساسة يرسم عليها ما يحيط به من مؤثرات في الحياة والطبيعة التي يحياها؛ وهنا قد روعي المبدع الذي يعد إبداعه مرآة عاكسة لما حوله، وما يحدثه من تأثير في الذات وفي المتلقي معا.

والثالث يضع المبدع في أولويات اهتمامه؛ أي يركز على صاحب التعبير الجميل الذي يعطي صورة واضحة عن حالته التي يحياها.

والرابع يجعل الأدب سببا به يعرف الكلام الموافق لمقتضى الحال؛ أي يضع النتاج الأدبي في أولويات اهتمامه.

وفي الأخير أعطيت الأولوية لفن الأدب في الحكم على مكانة الأمة في مختلف مجالاتها وبخاصة منها العقلية والنفسية وعيوبها.

فهذه المفاهيم تفرد كل مفهوم منها بخاصية أو أكثر، إلا أن هناك ما يجمع بين أغلبها في بعض خصائصها كالتأثر والتأثير.

2-أهمية الأدب

إن الحاجة إلى الأدب أمر فعلي، يجد صداه في تفاعله مع المجتمع بما يصوره ويعكسه من حقائق في واقع الحياة، ولن يكون الأدب أدبا عاليا ما لم يصور حياة الناس « ويعكس لنا العوامل الفعالة في النهضات العمرانية السائرة في سبيل التطور العام ».[6]

فالأدب إذن مرآة عاكسة للواقع بما يثيره في نفس الإنسان من خوالج وأفكار، ومهما كان الأدب وجدانيا إلا أن صاحبه يأبى أن يبقى بمعزل عن واقعه، بل يجعل أدبه يعكس ما يحيط به من مؤثرات يعبر عنها، ثم نجد صداها في بيئته التي يحي فيها.

من هنا ندرك أهمية الأدب في حياة الناس؛ إذ يعد « مصدرا من مصادر التاريخ الإنساني، وعسى أن يكون بالقياس إلى بعض الأمم، أو بالقياس إلى بعض أطوار هذه الأمم : أخطر مصادر التاريخ» [7]؛ لذا حظي فن الأدب بمنزلة مرموقة وأهمية كبيرة لدى الإنسان قديما وحديثا؛ إذ لا يقل أهمية عن بعض الفنون الأخرى عند الأمم الحية في أداء دوره الرسالي المنوط به في بناء المجتمعات؛ لذلك ليس بدعا إن وجدناه الوسيلة الفاعلة التي اعتمدها الأدباء في تبليغ دعوتهم إلى أممهم، والقوة المؤثرة التي يلجؤون إليها لبلوغ مقاصدهم، ثم هو إلى اليوم يُعد ضرورة من ضرورات الحياة، وسلاح معنوي لا يمكن الاستغناء عنه في تواصل الأفراد والجماعات.

والحياة كما هو معلوم مليئة بالمتغيرات، فهي لا تستمر على حال لأن النشاط الإنساني فيها مستمر لا يتوقف، اللاحق يكمل على السابق، والحاضر يبني على أساس الماضي، فيتكون من ذلك كل متصل، والأدب جزء مرتبط بالكل وسياقه العام بما يسجله من حضور قوي في معترك الحياة، فهو « الأقوى تعبيرا على احتضان تحديات الحضارة وقضاياها، وهو لذلك الأكثر نفوذا، والأخطر تأثيرا » [8] في عملية البناء الحضاري،

والتفاعل مع المجتمع، وهذا ما يؤكد أهميته في واقع الناس بما يحمله من مزايا تفرد بها بين ضروب المعرفة الأخرى، بأنه يهدف في تَفَاعُله مع المجتمع إلى « الإقناع وإقامة الحجة، ولكن لا عن طريق البرهان المنطقي والقياس الفلسفي، بل عن طريق الإفهام في لُطف ».[9] الشيء الذي يعطيه المكانة المرموقة والأهمية البالغة في واقع المجتمع بما يحدثه من تَفَاعل بينهما.

3-علاقة الأدب بالمجتمع

تُعد علاقة الأدب بالمجتمع قضية هامة، ومعرفتها تقودنا إلى القول: أن الأديب يعي بُعده الاجتماعي ويسلم « بالحتميات التي تفرضها الظروف الخارجية وبخاصة الاجتماعية على النشاط الأدبي ».[10] مما يؤكد العلاقة الوطيدة بين الأدب والبيئة الاجتماعية، فإذا كان الأدب تعبيرا عن ذات الأديب فهو في الوقت نفسه « تعبير عن فئة من الجماعة التي يعيش بينها مبلورا آراءها واتجاهاتها، مجسما آمالها، ومعبرا عن واقعها وعما تصبو إليه انطلاقا من هذا الواقع في حركة الحياة والمصير ».[11]

فالأديب على هذا النحو ليس مجردا من مسؤوليته الاجتماعية، بل هو:« مسؤول عن تقدم مجتمعه وتأخره باعتباره مشاركا فيه، وباعتباره متأثر به ومؤثرا فيه »،[12] وهذا يُعد موقفا صريحا في أن المجتمع لا يمكنه الاستغناء عن الأدب، لذلك ليس غريبا أن نعود إلى المجتمع ليمدنا تفسيرات لظواهر فنية، بخاصة فن الأدب الذي يعتمد اللغة أداة للتعبير، واللغة- كما هو معروف- ظاهرة اجتماعية نشاطها :« يتوازن دائما مع النشاط الاجتماعي فالمجتمع بشتى ألوانه، النشاط فيه يترك كثيرا من الانطباعات التي يمكن تمثلها في النشاط الفني »[13]؛ لذا نجد الأديب على صلة دائمة بمجتمعه يوجه أدبه للمجتمع الذي يعيش فيه، وأن كل ما يكتبه لا يكتبه لنفسه فحسب بل يكتبه أيضا لمجتمعه« ومن ثم كانت مطالبته أن يكون

اجتماعيا في أدبه مطالبة طبيعية، أما أن يتخلى عن مجتمعه فإن ذلك يُعد شذوذا وانحرافا، وانسياقا نحو ضرب من الانعزال من شأنه أن يفتّ في عضد المجتمع ». (14)

والمجتمع السليم هو الذي يظهر بمظهر القوة، والتماسك في شبكة علاقاته الاجتماعية، وتتضامن فيه وحداته خدمة للصالح العام؛ بحيث لا يوجد الأدباء بمعزل عنه، بل هم له بالعون النافع يعيشون آلامه، وآماله، والأديب الحق لا يفهم الحياة حق الفهم إلا إذا قام بواجبه إزاء مجتمعه الذي يعيش فيه، وبذلك يكون أدبه أدبا يحقق الصلة بينه وبين أمته؛ إذ لا يستطيع أن يعيش منعزلا عن مجتمعه، أو يصرف نظره عنه، وعما يعانيه من أحداث، وهذا ما يؤكد عمق العلاقة التفاعلية بين الأدب والمجتمع في أدبنا العربي.

ولو عدنا بذاكرتنا إلى أدب فترة ما قبل الإسلام لوجدناه يصور حياة الجاهلين في حلهم وترحالهم تصويرا دقيقا؛ بمعنى أن الأدب الجاهلي لم يكن منفصلا عن واقعه الاجتماعي بل هو مرتبط به وبقيمه، ما يحقق العلاقة الكاملة والتفاعل التام بين الأدب و المجتمع.

ولما جاء الإسلام بما يحمله من مبادئ وقيم أحدثت تغييرا في حياة العرب، فراحوا يصدرون عنه في أدبهم، بل اتخذه النبي (صلى الله عليه وسلم) عونا في تبليغ رسالته، وفي هذا دلالة واضحة على تفاعل الأدب مع واقع المجتمع.

وهكذا استمر الأدب على هذا النحو، فلم ينسحب من الحياة، بل كان يسجل حضوره في السلم والحرب، ويشارك في أحداث مجتمعه، وبخاصة في العصر الحديث؛ إذ أخذ الأدباء يقيمون علاقات جادة بينهم وبين واقعهم الاجتماعي، وانبروا مع شعوبهم يصارعون الاستعمار الغربي المشؤوم؛ وهذا معناه أن الأدب العربي لم ينفصل عن الحياة قديما وحديثا،«

وأن كثيرا من الأدباء كانوا يعدون أنفسهم مسؤولين أمام الضمير الشعبي، فهم يصدرون عنه فيما ينظمون ويكتبون».[15]

واضح مما تقدم أن الأدباء قد شاركوا مجتمعاتهم في حياتها، وتناولوها في شعرهم ونثرهم، مما يدفعنا إلى القَوْل أن الأديب أصبح صاحب رسالة تتمثل « في إيقاظ حواس الإنسان ومشاعره، ولا يخفى ما لهذه الغاية من آثر في معرفة الإنسان لنفسه، وفي إدراك الصلة التي تربطه بمجتمعه»،[16] كما له صلة بقضية الالتزام الذي هو نقيض الإلزام، ورديف التفاعل بين الأدب والمجتمع؛ بمعنى أن « الأديب الملتزم: يختار موضوعه وطريقة تعبيره بحرية كاملة، لأنهما يوافقان مذهبه في الحياة ويلبيان نزعة عميقة في نفسه».[17] وهنا يكون قد وضح معنى الالتزام الذي هو: « حزم الأمر على الوقوف بجانب قضية سياسية أو اجتماعية أو فنية، والانتقال من التأييد الداخلي إلى التعبير خارجيا عن هذا الموقف بكل ما ينتجه الأديب أو الفنان من آثار».[18] من خلال هذا المعنى لقضية الالتزام نفهم أنها ليست تعبيرا عن ذاتية الأديب وتجاربه وعواطفه وانفعالاته فحسب، بل هي اعتراف بقيمة الأدب ومدى تفاعله مع المجتمع؛ أي أن الأديب يشارك مجتمعه في نشر دعوته والتمكين لها ، وهذه غاية كل فنان مبدع يتحمل مسؤوليته دون توجيه أو ضغط خارجي في إقامة علاقات عضوية جديدة بينه وبين مجتمعه، كما يسعى جاهدا من أجل تحقيق غاية الأدب المتمثلة« في نشدان الحقيقة التي يبحث عنها الإنسان، ورسالة في الخير، أو تحقيق السعادة، وهي غاية الحياة الإنسانية لا يحققها الأديب أو يحاول تحقيقها لذات الأديب فحسب، ولكن أيضا للجماعة التي ينتسب إليها، للإنسانية كلها إذا استطاع إلى ذلك سبيلا، وبذلك يستطيع الفن الأدبي أن يشارك في بناء المجتمعات، وصياغة حياتها صياغة جديدة».[19]

وهنا لا نكون مبالغين إذا قلنا أن الأديب في أمته هو المرآة الصافية التي تعكس آمالها وما هزها من أحداث آلمت بها، أما أن يعيش لنفسه وفرديته، فهذا ضرب من الأنانية والانعزال من شأنه أن يصبح منفصلا عن مجتمعه وبالتالي عن المجموع الإنساني كله وهذا يؤكد القول أن العلاقة بين الأدب والمجتمع علاقة تفاعل بينهما.

4-نماذج تطبيقية من أدبيات (محمد العيد آل خليفة)

إن التفاعل بين الأدب والمجتمع؛ يتجلى بوضوح من خلال شعر (محمد العيد آل خليفة) الذي اعتمد في مسيرته الإصلاحية على كل ما أتيح له من وسائل مادية ومعنوية، وكان الأدب إحدى أدواتها في عملية البناء والتغيير، وقد سجل شعره واقع الجزائر، وعبر في صورة واضحة عن ارتباطه وتفاعله مع المجتمع، وهذه بعض النماذج الشعرية من أدبياته نسوقها على سبيل التمثيل لا الحصر. قصد الاستدلال بها عن طبيعة المرحلة، وعلى مستوى الخطاب الفني الذي يؤكد عن مدى تفاعله مع المجتمع، ذلك ما نقرأه في كثير من قصائده الشعرية من مثل (صدى الصحراء) يخاطب الأمة محذرا إياها من شر المصائر جراء تعرض دينها لمكائد الاحتلال منها قوله[20]:

أفيقوا فهذا الدين بين ربوعكم* تنازله الأحداث شر نزال**

تحاول نكباء الضلالة نسفه* وترميه أشلاء الردى بنبال**

فقوموا مقامات الدفاع حياله* ليآمن هذا الدين كل ضلال**

يُعد استهداف الدين في نظر المحتل الفرنسي القضية الأساسية لاستقرار الأوضاع، فهو يخشى من تحول « تعليماته ودروسه وعظاته إلى إيمان يملأ نفوس الأفراد والجماعات». [21] لذلك شن حربا صليبية للقضاء على مكونات الشخصية الدينية في الجزائر، قصد إجراء

تحويل في عقائد الناس من الإسلام إلى المسيحية، وإذا لم يتسن له ذلك فليكن الانحلال والتميع، وقد زاد الأمر تعقيدا نفوذ مشايخ الطرق الذين أقاموا علاقات طيبة مع الإدارة الاستعمارية، مما أدى إلى تأثير بالغ في تضليل الشعب؛ بحيث أصبح يعيش حالة من الفوضى العقدية أثرت سلبا في حياته وسجلت جوا اجتماعيا مضطربا تراجعت فيه الشخصية الدينية، لكن هذا لم يمنع نخبة من أبناء الوطن المخلصين من التصدي لمكائد الإدارة الاستعمارية منهم الشاعر (محمد العيد آل خليفة) الذي يدرك نواياها ومقاصدها في القضاء على الشخصية الدينية في الجزائر، وهذا ما دفعه إلى تحذير الأمة ودعوتها إلى النهوض من أجل الدفاع عن دينها الذي هو سر بقائها واستمرارها، فبدونه لا يتسنى لها ممارسة حياتها الطبيعية وفق عقيدتها الإسلامية؛ لذلك يجب حماية هذا الدين من مكائد الأعداء، والحفاظ عليه من ضلالات المنحرفين حتى تستقيم الحياة، ويتم استرجاع الكرامة المفقودة التي تعد الطريق الوحيد الذي يضمن الخلاص والنجاة، والفوز بمستقبل حر يعيد للأمة مكانتها، وهي الغاية التي يرجوها الشاعر، ما جعل خطابه يرقى إلى مستوى تحمل المسؤولية في الدفاع عن مقدسات الأمة، ويبين مدى تفاعله مع الواقع الاجتماعي، وهذه ترجمة واضحة لتفاعل الأدب مع المجتمع. ذلك ما نلحظه أيضا في قصيدة شعرية قالها الشاعر بعنوان: (يا معشر الطلاب) يحملهم فيها مسؤولية النهوض بالأمة منها قوله [22]:

يا معشر الطلاب هل من ناهض* بالشعب حر حافظ لذمامه**

أو باعث في الشعب روح إباية * منكم فموت الشعب في استسلامه**

ما عاثت الذؤبان في أغنامه * لو كانت اللآساد في آجامه**

إن واقع الحياة الثقافية في الجزائر تعرض لأبشع صور الغزو، وبخاصة الثقافي منه الذي من مقاصده استهداف أهم مقومات الأمة؛ بالتالي كان من الطبيعي أن تنحصر الثقافة ويتراجع التعليم، وهذا ما كان يصبو إليه الاحتلال الفرنسي لأنه يعلم « أن العلم سيف قاطع، فإذا تسلح به الجزائري أمكنه أن يقاومه، فسعى حينئذ في تجهيل الأمة الجزائرية »[23] لكن هذه الأوضاع المضطربة- في جميع مناحي الحياة- التي فرضت على الشعب الجزائري، وهذه المصائب التي ألمت به لم تضعف من عزيمة بعض أبنائه الذين تصدوا لمكائد الاحتلال منهم الشاعر (محمد العيد آل خليفة) الذي راح ينادي في طلبة العلم من شباب الجزائر، محملا إياهم مسؤولية النهوض بالشعب لاسترجاع حريته وكرامته، وعدم الاستسلام للضغوط الخانقة لإرادته. وهذا يسجل حضورا قويا للمثقفين في مد جسور التواصل بينهم وبين الشعب رغم الأوضاع المضطربة التي تسبب فيها الاحتلال، ما يدفعنا إلى القول أن الأدب أصبح وسيلة من وسائل التغيير، ومنبرا حرا للتعبير عن آمال وآلام الأمة، وهذا يؤكد لدينا أهمية تفاعل الأدب مع المجتمع، وذلك ما نلحظه أيضا في قول الشاعر من قصيدة له بعنوان: (منظر تاعس ناعس) يدعو فيها إلى التكافل الاجتماعي منها قوله[24]:

يا أيها المثرون هبّوا إلى * إسعاف أهل الفقر فالفقر ناب**

ونال من إخوانكم واحتوى * عليهم والفقر أس الخراب**

فاستصرخوا الهمة في برهم * وأيدوا في الخير كل اكتتاب**

وأكرموا في الله سبحانه * عباده يكرمكم بالثواب**

ومَن يكن لله إنْفَاقُه * ينل به الزُّلفَى وحسن المئاب**

الناظر في واقع المجتمع الجزائري إبان الاحتلال الفرنسي يلحظ أن حياته الاجتماعية قد اضطربت، وسادتها الفوضى وانتشرت المفاسد وكل أنواع الآفات في مقدمتها الفقر الذي نال من أغلب الشغب الجزائري؛ وذلك كان من مقاصد الاحتلال، لأنه يعلم أن الفقر إذا عم في الأمة أمكنه التحكم في رقابهم، وهذا أمر طبعي تسلكه الإدارة الاستعمارية، لكن تصدى لها رجال أحرار من علماء ومصلحين نهضوا لعلاج هذا الداء المهلك والمنهك لقوى الأمة منهم الشاعر (محمد العيد آل خليفة) الذي كان يدرك تمام الإدراك أن مثل هذا الداء إذا استفحل في الأمة لا علاج له إلا بالرجوع إلى الدين لأنه الجامع الوحيد بين أبناء الجزائر، فراح يناشد من خلاله أغنياء الأمة بأن يهبوا إلى إسعاف إخوانهم الفقراء؛ لأن الفقر إذا تفشى في الأمة خارت قواها وعمها الخراب الذي لا ينجو منه أحد، وكذلك يدعوهم إلى التقرب إليهم وبرهم لأن ذلك من دواعي استنهاض الهمم، وجلب الخير، وتمتين شبكة العلاقات الاجتماعية، وهذا كله من مقاصد الدين الذي اعتمده الشاعر في خطابه للأغنياء حتى ينالوا الرضى والثواب وحسن المئاب.

وما يلفت الانتباه هنا أن الخطاب المعتمد من قبل الشاعر يرقى إلى مستوى تحمل المسؤولية في عملية البناء والتغير، كما يبين أيضا عن مدى تفاعله الإيجابي مع المجتمع، ما يفسر لدينا ذلك التواصل التفاعلي بين الأدب والمجتمع خدمة للصالح العام، وهي غاية الأدب الهادف.

وهذا ما نلحظه أيضا من قصيدة له بعنوان (صوت من الغيب) يحث الشعب الجزائري على النهوض والتغيير نحو الأفضل منها قوله [25]:

يا شعب قم على الهمـوم والشؤوم ثائـــــرا

يا شعب جد الجد فانهض واكسب المفاخـــــرا

يا شعـــب رض بالصالحات أرضك الجزائـــــرا

واتبع بها معـــالـــم الأجـــداد والمآثـــــرا

إن وجود الاحتلال الفرنسي في الجزائر وبسط نفوذه الضاغط على مقومات الأمة أدى إلى تغير صورة الحياة العامة، مما أوقع الشعب في أتون مكائد الإدارة الاستعمارية، فعمت بذلك البلوى في جميع مجالات حياته لأن من مقاصد الاحتلال الفرنسي المحو التام للكيان الجزائري فالشعب في نظره « شعب من الدرجة الثانية أو الثالثة، لا يستحق الاحترام والتقدير، ولا يستأهل العناية والمساعدة والتطور ».(26)

على هذا النحو كانت تدار شؤون الحياة العامة في الجزائر، وقد تأذى الشعب جراء ذلك في مصالحه العامة، وربما كان هذا السبب الرئيس في توجيه الحياة في الجزائر توجيها ثوريا أكسبها منطلقات جديدة، وأغناها بالوعي، وهيأ لها سبلا تسلكها على بينة من الأمر؛ إذ لم يكن هناك مخرج إلا الثورة كوسيلة للخلاص والتحرر، الأمر الذي دفع بالشاعر (محمد العيد آل خليفة) أن يصرخ في الشعب صرخة ثورية مخاطبا أياه بأن يثور على الضيم والأذى الذي لحق به حتى يتسنى له استرجاع حريته، وينال عزته وكرامته، وهذا لن يتحقق إلا بالجد والنهوض من أجل التغيير الذي يكسبه الفخر، ويعيد له مكانته بين الأمم ليتمكن من تقديم يد العون لوطنه، مقتديا بأسلافه في عملية البناء والتغيير.

من الواضح هنا أن الشاعر قد استطاع أن يقيم علاقة وطيدة بينه وبين مجتمعه الذي يعيش معه، وذلك بنقل صورة واضحة عن حياته، فهو يعيش آماله وآلامه لم ينفصل عنه، وهذا ما يفسر اهتمام الشاعر بقضايا أمته، ويؤكد لدينا أن العلاقة بين الأدب والمجتمع علاقة

تفاعل بينهما، ذلك ما نقرأه أيضا من قصيدة له بعنوان (أعزم السير) يحث فيها الشعب باتخاذ الأسباب من أجل حياة هنيّة يقول[27]:

أيها الشعب خذ من المجد حظا * لك واكسب من كل علم نصيبا**

لا تكن يائسا من الخير واعمل * إن للشمس مطلعا ومغيبا**

إن ترد عيشك الهني فكافح * واعزم السير لا تدب دبيبا**

أو ترد فوزك العظيم فاخلص * كل من كان مخلصا لن يخيبا**

تعرض الشعب الجزائري لظروف ضاغطة خنقت حريته، وعوائق كثيرة كبلت إرادته، وذلك بوقوعه تحت تأثير تجاذب قوتان: الإدارة الاستعمارية من جهة، والطرق الصوفية من جهة ثانية، مما أثر سلبا في حياته وأوقعه في الجهل، والإغراق في الأمية الفكرية، والفهم الخاطئ للعقيدة الإسلامية جراء انتشار ثقافة الطرق الصوفية التي آل أمر كثير من زواياها إلى إحداث وثنية في الإسلام ما أنزل الله بها من سلطان.

فالمتأمل جيدا في المشهود يلاحظ أن كل ما يراه في المجتمع « من جمود وغفلة، وتناكر وقعود عن الصالحات، ومسارعة في المهلكات، فمرده إلى الطرق ومأتاه مباشرة أو بواسطة منها ».[28] لكن هذا لم يمنع رجال الإصلاح من تحمل مسؤولياتهم. فعمدوا إلى تعليم الشعب الجزائري وتوجيهه وإرشاده، لأنهم كانوا يؤمنون « بأن نشر الإصلاح الديني والفكري لا يمكن أن يتخذ سبيله إلى عقول المواطنين إلا إذا كان مصحوبا بالتعليم ».[29]

وهذا ما دفع بالشاعر (محمد العيد آل خليفة) إلى استثمار هذا الاختيار الذي كان الشعب الجزائري في حاجة ماسة إليه. فراح ينادي في الشعب حاثا أياه باتخاذ الأسباب

المتاحة له في التعليم لأنه الأساس في اكتشاف المجد، والدافع الرئيس في التغلب على اليأس، والطريق إلى الخير والعمل بجد وإخلاص من أجل ضمان عيشة سعيدة تحفظ له كرامته.

من الواضح هنا أن المتأمل في قول الشاعر يلحظ فيه مدى إخلاصه في توجيه ندائه المفعم بالأمل، وهذا مؤشر واضح في تفاعل الأدب مع المجتمع، يظهر ذلك بجلاء فيما قام به من واجب الوفاء والنصح لشعبه، وتوضيح الطريق أمامه بالوقوف الصحيح على المنهج السليم في تجاوز العوائق والتغلب عليها، وفي هذا تعبير عن مدى ارتباطه بمجتمعه وتفاعله معه، وهي الغاية التي يصبو إليها كل أديب حر ملتزم بقضايا قومه.

يظهر ذلك أيضا في قصيدة له بعنوان (يا قوم هبّوا) فيها نصائح عالية وإرشادات حكيمة منها قوله[30]:

حُثـوا العزائم واصدقـوا الآمالا * إن الزمان يسجل الأعمـالا**

يحصي ويكتب في صحائـف سِفْـره * أعمالنا ويُذيعها أقوالا**

وشهادة التاريخ أوثق حجّةَ * تجلو الأمور وتكشف الأحوالا**

فتدارسوا التاريخ والتمسـوا به * للنشئ رمـــزا عالياومثـــالا**

القارئ بإمعان لما جاء في قول الشاعر يتبين له بوضوح إقامة تلك العلاقة العضوية بين الأدب والمجتمع، وهذا ما يدل على انتماء الشاعر الاجتماعي، أو انتسابه إلى وسط معين يتميز عن غيره بمعالم تتعدد بتعدد مظاهر البيئة وارتباطه بها جذريا، ما يحقق بصورة واضحة تفاعل الأدب مع المجتمع، ويؤكد القول على أهميته في خدمته لقضايا الأمة، وتحمل مسؤوليته كطرف فاعل في المجتمع.

يظهر ذلك بوضوح في شعر (محمد العيد آل خليفة) فيما يَبْنِيه من جسور تواصل بينه وبين مجتمعه، والتزامه بأداء دوره الرسالي وفق أهداف لا يسمح أبدا لنفسه أن تحيد عنها، بل يجب أن يشارك « بالفكر والشعور الفني في قضايا قومه الوطنية والإنسانية وفيما يعانون من آلام ويبنون من آمال ».[31]

ويترجم ذلك في دعوته لاستنهاض الهمم بالحث على العزم والصدق قصد تحقيق الآمال المرجوة التي لا تتحقق إلا باتخاذ الأسباب التي توصل إلى ذلك، علما بأن كل ما يقوم به الإنسان من أعمال فهي مسجلة له أو عليه؛ لذا ينبغي أن يسجل حضوره وفق ما تقتضيه مصلحة قومه، حتى يكتب في سجل التاريخ ويشهد له؛ لأن التاريخ إما أن يكون حجة له أو عليه، لذلك تعد قراءته درسا عمليا، ورمزا عاليا، ومثالا حيا في اتخاذ العبرة.

وأخيرا يمكن الجزم – من خلال النماذج الشعرية التي إعتمدناها في هذا الموضوع– على عمق العلاقة التي تربط بين الأدب والمجتمع، وأنها استطاعت أن تسجل حضورا قويا في تفاعلها مع المجتمع بإقامة علاقات جادة بَيْنَها وبين المجتمع، وهذه إشارة واضحة في التحام العلاقة بين الأدب والمجتمع؛ إذ يعد ذلك مطلبا ملحا في التفاعل بينه وبين المجتمع الذي يعيش فيه.

الهوامش

1- ميشال عاصي، الفن والأدب، مؤسسة نوفل، بيروت، ط3، سنة 1980م، ص :77.

2- أنيس المقدسي، الاتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث، دار العلم للملايين، بيروت، ط6، سنة 1977م، ص:11.

3- ميشال عاصي، الفن والأدب (مرجع سابق)، ص:77.

4- السيد أحمد الهاشمي، جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب، تحقيق وتصحيح لجنة من الجامعيين، مؤسسة المعارف، بيروت، ج1، ص:14.

5- أحمد أمين، النقد الأدبي، دار الكتاب العرب، بيروت، ج1، ط4، سنة 1967م، ص: 24.

6- أنيس المقدسي، الاتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث، (مرجع سابق)، ص: 11.

7- طه حسين، خصام ونقد، دار العلم للملايين، بيروت، ط10 ، سنة 1980م، ص: 44-45.

8- محمد شفيق شيا، في الأدب الفلسفي، مؤسسة نوفل، بيروت، ط2، سنة 1986م، ص: 54.

9- أحمد بدوي، أسس النقد الأدبي عند العرب، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، الفجالة، القاهرة، ص: 63.

10- روبير اسكاربيت، سوسيولوجيا الأدب، ترجمة وتمهيد، آمال أنطوان عرموني، منشورات عويدات، بيروت، ط1، سنة 1978م، ص: 31.

11- ميشال عاصي، الفن والأدب، (مرجع سابق)، ص: 43.

12- المرجع نفسه، ص: 45.

13- عز الدين إسماعيل، الأسس الجمالية في النقد العربي، عرض وتفسير ومقارنة، دار الفكر العربي، ط3، سنة 1974م، ص: 306.

14- شوقي ضيف، في النقد الأدبي، دار المعارف، مصر، ط4، ص: 191.

15- المرجع نفسه، ص: 196.

16- محمد مصايف، جماعة الديوان في النقد، مطبعة البعث، قسنطينة، الجزائر، سنة 1974م، ص: 322.

17- محمد مصايف، فصول في النقد الأدبي الجزائري الحديث، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط2، سنة 1981م، ص: 194.

18- جبور عبد النور، المعجم الأدبي، دار العلم للملايين، بيروت، ط2، سنة 1984م، ص: 31.

19- بدوي طبانة، قضايا النقد الأدبي، دار المريخ، الرياض، سنة 1984م، ص: 20.

20- ديوان محمد العيد آل خليفة، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، مطبعة البعث، قسنطينة، سنة 1967م، ص: 13.

21- حكمة أبو زيد، التربية الإسلامية وكفاح المرأة الجزائرية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ص: 102.

22- ديوان محمد العيد آل خليفة (مصدر سابق)، ص: 90.

23- محمد الطمار، تاريخ الأدب الجزائري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، سنة 1981م، ص: 326.

24- ديوان محمد العيد آل خليفة، (مصدر سابق)، ص: 30.

25- المصدر نفسه، ص: 61.

26- يحي بوعزيز، ثورة 1871م دور عائلتي المقراني والحداد، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ص: 36-35.

27- ديوان محمد العيد آل خليفة (مصدر سابق)، ص: 191.

28-محمد البشير الإبراهيمي، سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، المطبعة الجزائرية الإسلامية، قسنطينة، ص: 23.

29- أحمد الخطيب، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وأثرها الإصلاحي في الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، سنة 1985م، ص: 197.

30- ديوان محمد العيد آل خليفة، (مصدر سابق)، ص: 339.

31- محمد غنيمي هلال، النقد الأدبي الحديث، دار العودة، بيروت، ط1، سنة 1982م، ص: 484.